نظرة في الصلات العربية الفارسية حتى مطلع الإسلام

الدكتور محمد التونجي

نعم ان العرب والعربية ، يوما ، وصلا اقصى الشرق واقصى الغرب ، اقصى الشرق حتى بلغا مشارف الصين وتمدياها ، واقصى الغرب حتى وصلا اعلى جبال البرانس وتخطياها . وقد سارت العربية مع الركبان ، وتغنى بها الحداة ، فسمعها الاغراب عن الاعراب ، فهزهم الشوق الى معرفتها ، فاقبلوا عليها يتعلمونها او غيرة من شهرتها وسلاستها ، فمالوا عليها يريدون ان يعبثوا بها ولكن :

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها ، واوهى قرنه الوعل

ولقد خرجت اللغة العربية في العصور القديمة من الارومة السامية تاركة شقيقاتها : الفينيقية ، الكنعانية ، الاشورية ، العبرية .. وغيرها لتفوقها اتساعا وامكانية عشرات المرات ، ولتغزو وحدها لغات فارس ، وباكستان والهند وتركية ، ثم شمال افريقية وقلبها والاندلس وجنوب ايطالية . ولقد لمست اللغة العربية كل لغة من لغات تلك المناطق لمسات تتراوح بين التأثير الزهيد والدوبان التام .

ولا يعني حديثي هذا ان العربية اثرت ولم تتاثر ، لا ، فما من لغة في الدنيا لم تطعم غيرها ولم تتطعم بغيرها ، واللغة التي لا ترفد ولا ترفد تعتبر جافة ضيقة المحيط والامكانية . كما لا يضير لغة تاثرها بجارتها او بجاراتها ، ولا يحط ذلك من قدرها .

وبما أن حديثنا محاط باطار تبادل التاثر والتاثير بين العربية والفارسية ، فلاذكر ان للعربية فضلا على الفارسية هو فضل اتمام النقص وسد الحاجة من المفردات التي انتشرت في اللغة الفارسية، مع اقتباس وتشبع بالادب العربي وتاريخه وتاريخ تطوره اثر انتشار الاسلام والعربية في الشرق المسلم . وقد اخذوا منا كثيرا واخذنا منهم اكثر ، اخذنا منهم في العصر الجاهلي والاموي والعباسي والانحطاط ، ولا زالت بقاياها في لغتنا الحديثة الفصيحة منها والعامية، واخذوا منا منذ صدر الاسلام ، ولا زالوا ياخذون حتى اليوم . والعالم عندهم ، قديما وحديثا ، هو الذي يجيد العربية قدر اجادته للفارسية ، ومقياسهم العلمي والادبي للمرء مقدر بمدى معرفته للعربية وتمكنه منها .

يقول العوفي في كتابه « جهار مقاله : المقالات الاربع » ، في هذا الشان ما ترجمته : « لا يبلغ كلام الكاتب درجة عالية حتى ياخذ من كل علم نصيبا ، ومن كل استاذ نكتة ، وينبغي ان يعتاد قراءة كتاب رب العزة ، واحاديث المصطفى ، والنظر في صحف الخلف مثل ترسل الصاحب والصابي وقابوس ، والفاظ الامامي وقدامة ، ومقامات بديع الزمان ، ورسائل عبد الحميد ، ومن دواوين العرب : المتنبي والابيوردي والغزي . ومن شعر العجم الازرقي والفردوسي » .

للتبادل الثقافي مرحلتان : مرحلة ما قبل الاسلام ومرحلة ما بعده . وبما ان المجال ضيق والحديث

شيق ، والمرحلتان واسعتان ، فانني اكتفي باستعراض لمحات ترمي الى مدى التبادل الثقافي الذى كان يجري في الجاهلية وحتى مطلع القرن الهجري الاول ، مرجئا الحديث عن المرحلة الثانية ، وهي الاوسع ، الى مقالة ثانية ان شاء الله .

اما المرحلة الاولى فقد كان العرب على اتصال مع الفرس منذ كورش الذى توفى (550 ق. م.) اذ دفنوا له الجزية ، ثم اعانوا ابنه « كبوجية » ، والذي اسماه العرب (قمبيز) ، عام (525 ق. م.) على فتح مصر والسودان . كما يروى ان الفرس كانوا يعظمون البيت الحرام ، ويحجون الى مكة ، ويطوفون بالبيت ، ويزمزمون على بئر اسماعيل . ومن جملة الاكاسرة الذين حجوا الى مكة « ساسان بن بابك » مؤسس الدولة الساسانية . وفى ذلك يقول احد الشعراء الفرس مفتخرا :

وما زلنا نحج البيت قدما
ونلقي بالاباطح آمنينا

وساسان بن بابك سار حتى
اتى البيت العتيق يطوف دينا

فطاف به وزمزم عند بئر
لاسماعيل تروي الشاربينا

وقد وجدت مدينة عربية بين دجلة والفرات فى زمان « شاور بن اردشير » سنة 273 م ، قبل ان تعرف مدينة الحيرة وكان اسم مالكها « الساطرون »، والعرب تسمي المدينة « ضيزن » ، وسكن فيها قبائل من قضاعة وبني عبيد ابن الاجرم . وكان الساطرون على حرب دائم مع شابور . وقد استطاع هذا فتح المدينة وقتل الساطرون ، وفى ذلك يقول « عمرو بن آله » :

الم يحزنك والانباء تنمى
بما لاقت سراة بني عبيد

ومصرع ضيزن وبني ابيه
واحلاس الكتائب من تزيد

اتاهم بالفيول مجللات
وبالابطال ، سابور الجنود

فهدم من اواسي الحصن صخرا
كان قفالة زبر الحديد

وقد كانت الاتصالات العربية الفارسية قبل الحيرة غالبا عبارة عن معارك وغارات من قبل القبائل لتستفيد من خيرات فارس ، فيقوم جند كسرى لصد وقتل العابثين .

اما من الناحية التجارية ، وهو امر هام كذلك ، فقد كانت الجزيرة العربية سوقا لبضائع فارسية وهندية ، كما كانت محطات لقوافل فارسية ، كانت فى طريقها الى بلاد الروم او الى بلاد اليمن السعيد . وقد كانو يخشون على قوافلهم التجارية من هجمات القبائل لذا استعانوا بالعرب كثيرا ، كما اشرت ، على هذه القوافل ايام السلان والصفقة . وقد كانت مكة ، كما نعلم ، سوقا عالمية ، فيها تجار من شتى الاصقاع. وكما يحدثنا الواقدي انه كان فيها ممثلون تجاريون لفارس وبيزنطة ، كما كانت الدراهم الفارسية من العملات الرائجة آنذاك . وقد كانت بلدة « جرة » على الخليج العربي سوقا تجارية لبضائع الهند وفارس ، وقد اسست هذه المدينة فى القرن الرابع قبل الميلاد.

وعندما ازدادت اتصالاتهم بالعرب ، حربا وتجارة ، فكروا بتاسيس امارة على تخومهم ، يحمون بها انفسهم مغبة هجمات القبائل ، فاسسوا دولة المناذرة فى العراق ، ومهمتها جمع الضرائب وتقديمها للبلاط الاعجمي ، وحماية التخوم ، كما فعل الروم بتاسيس دولة الغساسنة على تخوم الشام .

ونظرا الى اهمية الحيرة ومكانتها من الادب العربي والصلات مع الفرس ، ونظرا الى النهضة الشعرية التي برزت فيها ، اجدني مضطرا للوقوف على ابواب الحيرة وقصريها ، لاطرقها ، ولانتظر جواب محدثنا عن الخورنق والسدير .

ترجع نشاة هذه الدويلة الى « جذيمة الابرش » الذي خضع للفرس ، واستعان بهم على شيء من السيطرة على القبائل فى بادية الشام . ثم ان «رقاش» اخت جذيمة تزوجت رجلا من بني اخوالها اسمه « عدى بن نصر اللخمي الايادي » ، ورزقت منه صبيا سمته « عمرا » ، فلما مات جذيمة عام 268 م خلفه عمرو هذا ، واتخذ الحيرة على مقربة من « بابل » ومن الكوفة اليوم ، منزلا له . فمن عمرو هذا جاء ملوك الحيرة .. وقيل غير ذلك .

ويظهر ان كلمة (الحيرة) سريانية ، ومعناها المعسكر ، وهي فى الاصل (حرتا) . وقد كانت مكونة من قصور محصنة حول ميدان واسع . وينسب بناء قصرى الخورنق والسدير الى النعمان الاول الذي

حكم بين 400 ـ 418 م . وقد بنى النعمان قصر الخورنق قرب الحيرة ، بناه المعمار الرومي الشهير « سنمار » . والخورنق كلمة فارسية اصل لفظها (خورنكاه) او (خورنه) ، وهو الايوان لدى ملوك الفرس ، كان يستخدم للاستفادة من اشعة الشمس وللمصادة ، وعربت الكلمة الى (خورنق) ، ثم صارت في مصر (الكرنك) .

كما بنى السدير في بادية الشام ، واصل الاسم (سه دير : القباب الثلاث) . وقد بناهما النعمان عندما ارسل « يزدكرد » وهو « بهرام كور : بهرام الحمار » الى الحيرة لينشأ نشأة فروسية ، ويربى تربية قوية ، ويتعلم القنص ، وينعم بجودة الهواء ، وكم تغنى الشعراء بجمال هذين القصرين ، وخاصة عدي والاعشى .

وتعلم بهرام هناك العربية ، ويحكى انه قال الشعر العربي ، كما نسب اليه اول بيت شعر بالفارسية . وبعد وفاة ابيه نازعه اخوه على الملك ، فاستعان بالعرب ليصل الى الملك ، وكان له ذلك ، ولما اعتلى العرش لم ينس ما كان لعرب الحيرة من يد عليه فقربهم واعلى شأنهم .

وقد كان للنعمان كتائب عسكرية اهمها اثنتان الاولى (الشهباء) وهي فارسية ، والثانية (دوسر : ذات الراسين) وهي عربية . وقد انتقلت التجارة الفارسية رسميا الى عرب الحيرة ، فنقلوا بضائعهم وحموا قوافلهم .

نستدل من ذلك كله ان التبادل جرى عن طريق التجارة اولا وعن طريق الجوار سلما وحربا ثانيا . هذا الاتصال الوثيق كان يجبر الطرفين ان يستخدموا مترجمين يقومون بالاتصال بين القصرين العربي والفارسي ، ومترجمين يرافقون اصحاب القوافل التجارية . فقد كتب (لقيط بن يعمر الايادي) لكسرى وترجم له ، وكان (عدي بن زيد) من تراجمة كسرى ابرويز ، كما كان ابوه زيد على معرفة بالفارسية .

كما كانت مدرسة (جند يشابور) معهدا لدراسة الطب والفلسفة والموسيقى ، فرحل بعض العرب لتعلم الطب ، منهم (الحارث بن كلدة الثقفي) الذي اتقن في ذلك المعهد الطب والعزف . وذهب كذلك ابنه « النضر » الى هناك ، وكلف بالفارسية . وهو الذي كان يحكي اقاصيص رستم واسفنديار في اوائل البعثة الى مكة ، معاديا في ذلك الدين الاسلامي.

ولقد رحل بعض العرب الى بلاد الفرس بقصد التنزه والسياحة ، او كانوا رسل الملوك والتجار فرات اعينهم معابدهم الكبيرة ، ومبانيهم الفخمة ، وراوا كيف يعيشون ويطعمون ويشربون ، وسمعوا في مجالسهم الحكايات والاقاصيص وحياة الملوك ، فاثر هذا الى حد ما ، في عقلية العربي ، والشاعر منهم خاصة ، فذكر ما راى واستفاد من عبرهم ، واقتبس من معتقداتهم .

كما كان عرب الحيرة اذ ذاك في رخاء يحسدهم عليه غيرهم من العرب ، ولخصب ارضهم وغنى اقليمهم . فكان اذا جاء الشاعر الى الحيرة يتاثر بالطبع من هذه الزيارة ، فيتسع خياله وتتاقلم افكاره. وعلى هذا فقد كان لكل ما مر اثر في الادب العربي وفي الحياة الحضارية والعقلية . فاحاديث جذيمة الابرش واساطير الزباء ، والخورنق والسدير ، والاقاصيص حول سنمار ، والامثال التي ضربت فيه ، ويوما النعمان : نعيمه وبؤسه . كل ذلك وغيره كان سببه هذا الاتصال الذي كان يجري بين الامتين المعنيتين ومن اهم الشعراء العرب الذين ذهبوا الى بلاد فارس: الاعشى ، والذي لقب « صناجة العرب » ، وصناجة كلمة فارسية من (جنك ـ سنج ـ صنج) وهي الآلة الموسيقية المؤلفة من قطعتين معدنيتين مدورتين يضرب بهما . ويكفي ان نورد قطعة من شعر الاعشى لنستدل على كثرة الالفاظ الفارسية المستعملة في الجاهلية . يقول في مجلس انس يصف الخمرة وساقيها والازهار المحيطة بهم . وستجد ثماني عشرة لفظة فارسية اغلبها في وصف الازهار ، في سبعة ابيات :

ببابل لم تعصر فجاءت سلافة .
تخالط قنديدا ومسكا مختما

يطوف بها ساق علينا مشوم
خفيف ذفيف ما يزال مقدما
بكاس وابريق كان شرابه
اذا صب في المصحاة خالط بقما

لنا جلسان عندها وبنفسج
وسيسنبر والمرزجوش منمنما

وآس وخيري ومرد وسوسن
اذا كان هنزمن ورحت مخشما

وشاهسفرم والياسمين ونرجس
يصبحنا في كل دجن نفيما

ومستق سينين وون وبربط
يجاوبه صنج اذا ما ترنما

وهناك ، كذلك غير الاعشى ، عدى بن زيد الذي كان عينا للفرس في بلاط الحيرة . ولن ننسى النابغة الذبياني وصاحبه النعمان ابا قابوس ، وما كان له من فضل على ايجاد باب الاعتذار في شعر العرب ، واستخدامه للالفاظ الفارسية في الشعر العربي ، ثم هناك قيس بن الخطيم ، وطرفة ومالك بن نويرة ، وعمرو بن كلثوم ، وحسان .

وتعتبر العقائد من اكثر الامور تاثيرا في الامم وفي آدابها . فقد عرف العرب في الجاهلية الزردشتية وهي المجوسية ، والمانوية ، والمزدكية . وقد تجلى ذلك بتقديس العرب للنار المقدسة عند المجوس بحلفهم بها وبوصفها ، كما عبد بعض العرب الشمس وهي من عناصر الطبيعة وهي التي عبدها الفرس والشرق ، وبدا ذلك كله في شعرهم . ونجد بقايا ذلك في اشعار الشعراء بعد الاسلام كبشار والمعري والمتنبي وابي تمام . ولا ادل على تاثرهم بالاديان الفارسية من قول ابن قتيبة في كتابه (المعارف) ، عند كلامه على اديان العرب في الجاهلية :

« وكانت النصرانية في ربيعة وغسان ، وبعض قضاعة ، وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة ، وكانت المجوسية في تميم ، وكانت الزندقة في قريش .. اخذوها عن الحيرة » . وقد رفض المنذر الثالث اعتناق المزدكية فعزله قباذ وعين مكانه الحارث بن عمرو امير كنده . بعد ان اعتنق المزدكية .

وتذكر كتب التاريخ ان يوم ذي قار (610 م.)، فخر العرب ، حصل فيه اول معركة قام بها العرب باجماع تقريبا ضد امة عربية حاكمة ، واحداث هذه المعركة معروفة ، وقصة فلفرنا فيها تحكي صفحة من صفحات مجدنا العريق . فقد قتل النعمان عدى بن زيد ، فرد كسرى انتقامه بقتل النعمان ، فاستعد العرب واستعد الفرس . وكانت النسوة العرب يحرضن الرجال على الاستبسال ، ويلهبن بطولتهم باناشيد حماسية ، منها :

ان تهزموا نعانق
ونفرش النمارق

او تهربوا نفارق
فراق غير وامق

فقطع العرب احزمة رواحل نسائهم ، ليستميتوا دفاعا عن الحرائر اللواتي لا يستطعن الفرار على رواحل تقطعت احزمتها . فانجلت المعركة عن هزيمة الفرس، فاشاد الشعراء بقبائل بكر وشيبان وعجل خاصة ، كقول الدهان بن جندل :

ان كنت ساقية يوما على كرم
فاسقي فوارس من ذهل بن شيبانا

واسقي فوارس حاموا عن ديارهم
واعلي مفارقهم مسكا وريحانا

وكان العراق من اخصب اراضي الجزيرة بنهريها ، وبالحضارة المتبقية من حضارات الامم الاصلية ، ومن المناذرة المتاثرين بحضارة الاكاسرة. وقد امر عمر بن الخطاب (رضي) انشاء مدينتي البصرة والكوفة حول الحيرة ، فتحولت اليهما كنوز المدائن وحضارة البلاد . وبما ان سكان هاتين المدينتين من العرب ومن الموالي ، فقد اضطر هؤلاء الى تعلم العربية ، فكانوا اول من اتقن العربية والف فيها .

ولما استقر الاسلام والعرب في العراق وفارس وخراسان حصل الاتصال المباشر بين الامتين . لذا فقد اختلفت عوامل الاتصال والتبادل الثقافي بعد الاسلام عنها قبل الاسلام . فلم تعد فردية ، كما لم تعد سطحية او ضيقة المجال الزمني ، واذا رجحت كفة الفرس في الجاهلية ، واذا كان التاثر من طرف العرب هو الغالب قبل الاسلام فقد اختلف الامر عنه بعد الاسلام ورجحت كفة العرب ، نظرا الى ان الاتصال جماعي وعميق وطويل الاجل .

ويرجع السبب الاول لهذا الاتصال الى فتح العرب لارض فارس وحكمها . ولن اتحدث عن المعارك التي جرت بينهما حتى استقر الامر للعرب ، فهذا حديث طويل لا تسعه صفحات ضيقة المجال ، كما انه ليس محور حديثنا . ومن نتيجة ذلك انفسح المجال لتيارات وصلت الشعبتين ببعضهما حياة وفكرة . وصارت الخيوط التي كانت تصلهما في الجاهلية طرقا نسيجة ممهدة ، وصارت العلائق الفردية روابط اجتماعية وثيقة ، واصبحت الصلات الموقوتة عرى دامت قرونا نسيجة . وحسبنا ان نشير الى ان العرب اسسوا على حدود الفرس عددا من المدن اتخذت الطابع الفارسي ، كما كان اسم اغلبها فارسيا ايضا ، من ذلك : البصرة (بسراه : بعد الطريق) ، الكوفة ، الانبار (المخزن ، ثم صارت

في العامية عنبر) ، بغداد (الله المعطي ، حديقة الله) .. وسرعان ما امتلأت هذه المدن بالعرب ، وسرعان ما وفد اليها الفرس . ثم غدت مراكز للثقافة العربية الاسلامية .

كما اعتنق الفرس الاسلام مختارين ، تخلصا من المظالم التي اصطلوا بنارها قبل الاسلام ، فتسابقوا الى تعلم العربية على انها لغة الدين والحكم . وقد ازداد الاختلاط في زمان العباسيين ، وكما نعلم ان للفرس ضلعا قوية في تأسيسها . ولقد زاحم الفرس العرب في الوزارة والحجابة وقيادة الجيوش وجباية الاموال وولاية الاقاليم وادارة الدواوين ومنادمة الخلفاء وقرض الشعر .

ولقد دخلت القرآن الكريم الفاظ فارسية منها : ابريق . طبق . سراب . سجيل . جرف . سندس . مسك . كافور . خندق . استبرق . كنز . ومن شاء الاطلاع على الالفاظ الفارسية في القرآن فليرجع الى الاتقان للسيوطي او الى المعجم الذي كتبه « آرثور جفري » في الدخيل من كلمات القرآن التي قبسها العرف من الفرس ، وهي مما سنتحدث عنها في مقالتنا القادمة .

* * *

ومن الحق ان نقول ان للفارسية فضل راب الحاجة الحضارية وسد النقص اللغوي الذي تطلبه العصر الجديد بعد الفتح ، فدخلت في قرآننا ونثرنا وشعرنا وامثالنا . واذا كنا تاثرنا بهم حكما وسياسة وتابعية وديننا ولغة قبل الاسلام ، فاننا اثرنا باستقلالهم وادبانهم ولغاتهم بعد الاسلام . ولما ضاع استقلالهم ، واندمجوا في دولة الاسلام التي قادها العرب ، ولما ضاعت ادبانهم وذابوا في الديانة الاسلامية انغمسوا في العربية ؛ قرآنها وآدابها وعاداتها . وما هي الا فترة وجيزة حتى غدت الالفاظ العربية مبثوثة في النصوص والاحاديث الفارسية بشكل لا يمكن التخلي عنه باية حال . فما من نص الا وفيه ثلاثون بالمائة او اكثر من الالفاظ العربية ، وما من قصيدة الا واغلب قوافيها عربية .

ويعتبر الاثر العربي الاول في الفارسية تغيير الخط البهلوي الصعب بالخط العربي السهل ، فنراهم منذ اوائل الاسلام يغيرون الالفباء البهلوية بالفباء عربية مضيفين اليها اربعة حروف فقط لم يكن رسمها موجودا في العربية لعدم وجود نطقها ، فرسموها بشكل مناسب للحروف العربية القريبة النطق منها . فكتبوا (ب) باء بثلاث نقاط ، و (ج) جيما بثلاث نقاط ، وكذا (ث) زايا بثلاث نقاط . ووضعوا خطا آخر فوق الكاف للكاف الفارسية .

(يتبع)